الفلسفة الشرقيـــــة

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٢١ —

الفلسفة الصينية

يلاحظ الباحثون أن لديهم مصادر لابأس بها عن جميع الفلسفات الشرقية القديمة ماعدا الفلسفة الصينية فإنها ظلت إلى ماقبل هذه السنين الأخيرة مدروسة دراسة ناقصة ، إذ لم يوفق قبل هذا العصر أحد لأن يكتب عنها كتاباً وافياً يعالج نواحي فلسفتها العميقة المتشعبة ، ولكن ليس معنى ذلك أن هذه الفلسفة ظلت مجهولة تماماً إلى أن ظهرت تلك البحوث الأخيرة ، كلا ، فهذه الفلسفة قد عرفت فى العالم الأوربى المتمدين قبل الفلسفة الهندية مثلا ، إذ ترجم « كونفيشيوس » سنة ١٦٨٧ و « مانسيوس » سنة ١٧١١ ، ولكن الذى ظل ينقص الباحثين إلى هذا العهد الأخير هو الكتب الشاملة لجميع نواحى هذه الحياة العقلية القيمة ؛ غير أن هذه الثغرة قد أخذت تضيق على أثر شعور العلماء المحدثين بوجوب استيفاء هذه الدراسة الهامة ، ذلك الشعور الذى تجلى بوضوح فى كتاب العالم الكبير والمُستَصْين الخطير (ا . ف . زانكير) . ولا ريب أن هذا المؤلف وأمثاله قد كشفوا للعقل الحديث عن ناحية هامة من نواحى الفكر البشرى كانت مجهولة لدى العامة ، ومعروفة معرفة مشوهة لدى الخاصة . ولهذا الجهل أو التشويه ثلاثة أسباب : الأول صعوبة اللغة الصينية إلى حد يصعب معه إتقانها واكتشاف أسرارها . الثانى فقدان الثقة نهائياً من جميع الترجمات التى نقلت النصوص الصينية إلى اللغات الأوربية لما وجد بينها من تباين واختلاف جديرين باسقاطها كلها من صف الحقائق العلمية . السبب الثالث هو ذلك الغرور الأوربى المتجرف الذى ظل إلى ماقبل هذه السنوات الأخيرة يجزم فى طفولة بأن أول فلاسفة الدنيا هو « تاليس » وأن العقلية الشرقية — ولا سيما الجنس الأصفر — غير قادرة ألبتة على أن تنتج آراء فلسفية ذات قيمة عالية ، إلى غير ذلك من الدعاوى السطحية التى أزالتها البحوث الأخيرة عن الفلسفة الصينية منزلة الخجل والسخرية ، إذ كشفت الدراسات الحديثة عن أن للصين فلسفة عميقة مبتدعة جديرة بالاحترام يرجع تاريخها إلى عشرين قرناً قبل المسيح ، وأنها استطاعت أن تلون الحياة العملية العامة للأمة جمعاء بلونها الراقى ، وأنها استطاعت كذلك أن تحفظ الكيان الخلقى الكامل لهذه البلاد مدى أربعة آلاف سنة ، بل إن بعض العلماء يعتقد أن الفضل فى هذا التماسك الاجتماعى والمقاومة السياسية واحتفاظ الصين باستقلالها إلى الآن يرجع إلى تمسكها بالأخلاق العالية المسجلة في فلسفتها

على أن هذا لايمنعنا من أن نعترف مع الأستاذ زانكير بأن الفلسفة الصينية لم تعرف علم النفس التجريبي على النحو الذى يدرس عليه الآن ، وأن العقلية الصينية لم تعرف المناهج العلمية ، بل وأنها لم تنجح تماماً فى تأليف كتاب منظم متقن فى علم المنطق وإن كان هذا كله يجب أن ينظر إليه بعين التحفظ والاحتياط ، لأننا سنشير فيما بعد إلى المنطق الصينى ، وسنبين بعض مافيه من عمق وسمو كما أننا سنشير كذلك إلى مالهم من مجهود لابأس به فى العلوم المختلفة الأخرى

غير أن أولئك العلماء الذين استهانوا بالفلسفة الصينية ورموها بالخلو من النظريات لهم فى ذلك بعض العذر ، وهو أنهم لاحظوا فى جميع الأطوار التاريخية لهذه الأمة أن الفلسفة العملية هي التى تفوز بأهم الأدوار فخدعهم ذلك عن الفلسفة النظرية التى هى أساس كل هذه الأخلاق العملية . وفى الواقع أن من طلائع مميزات الأمة الصينية تحوُّل النظريات بسرعة إلى أخلاق عامة فى الشعب كله ، ولهذا قال « سوزوكى » اليابانى مانصه : « إذا كان الدين تمثّلا فى اليهود ، والتنسك فى الهنود ، والتفلسف فى الإغريق ، فإن الأخلاق هي الثقافة الروحية التى التقت في إمبراطورية [1] الوسط بممثليها الحقيقيين وبنموها المنظم المحدود [2] »

---

(١) إمبراطورية الوسط هى الصين

(٢) راجع كتاب تاريخ الفلسفة الصينية القديمة تأليف « سوزوكى » صفحة ٤٧ طبعة لندن سنة ١٩١٤

بلغت الأخلاق الصينية من السمو إلى حد أن يروي لنا الأستاذ « زانكير » أن المبشرين المسيحيين حين اتصلوا بالصينيين في القرن التاسع عشر ورأوا ماعندهم من أخلاق بهتوا خجلا من عقيدتهم القديمة عن هذه الأمة ولم يجدوا لهم من هذه الورطة مخلصاً إلا أن يعلنوا أن الإله قد أوحى إلى الصينيين كما أوحى إلى الإسرائيليين ، وأن « شانج — تي » ليس إلا الرب السماوي المذكور في الكتاب المبرى المقدس ، بل إن أحد « اليسوعيين » في القرن التاسع عشر اشتغل بجمع بعض النصوص الصينية ، ليثبت منها هذا الوحي الإلهي ، وإن عدداً كبيراً من القسس والعلماء قد حاولوا أن يربطوا بين التوراة وبين الكتب الصينية تارة في الأخلاق وتارة في أصول العقيدة ، وثالثة في اللغة [1] على نحو ما رأينا من التحككات اللفظية التي قام بها العلماء بين الفلسفتين : الهندية والفارسية . ويستطرد هذا العالم فيقول ما ملخصه : وقد ظلت الفلسفة الصينية مجهولة القيمة في أوربا إلى القرن التاسع عشر ، وهذا طبيعي ، لأن الفلسفة التي تسمو فيها الأخلاق إلى هذا الحد لايمكن أن تفهم حق الفهم في العصور التي — مع الأسف الشديد — لاتعنى بالأخلاق كثيراً ؛ ولكن العجيب في رأيه هو هذا التناقض البارز الذي نجد كثيراً في كتب « المستصينين » والذي أنزل أولئك الباحثين في نظر « زانكير » منزلة العوام والأميين كما يصرح ذلك بعد أن يسرد طائفة كبيرة من آرائهم المتضاربة المتناقضة ثم يسأل أولئك المتألمين متهكماً فيقول : تقولون إن العقلية الصينية غير جديرة بالاحترام ، لأنها لم تترك تراثاً علمياً ، فهل تستطيعون أن تنبئوني متى عرفت أوروبا العلم ؟ وهل كان لديها قبل فكرة قبل القرن السادس عشر عن العلم أو عن مناهجه الحديثة ؟ وهل كل شعوب أوروبا لم تكن مستوية مع الصين في هذه النقطة تمام الاستواء إلى عهد النهضة ؟

على أن هذه التهمة التي رموا بها العقلية الصينية هي باطلة من سامها ؛ فالصينيون قد عرفوا منذ أكثر من ثلاثين قرناً الرياضة الفلك إلى حد أن كان لهم فيهما بحوث قيمة تدور حول بعض مقدات فروع هذين العلمين مثل معرفة الفروق الدقيقة بين السنتين : الشمسية والقمرية ، ومعرفة أوقات دورات هذه الأفلاك الثلاثة : الأرض والشمس والقمر بالنسبة إلى بعضها . وفوق ذلك فقد كانت لهم دراية عظيمة بالأدب ونقد النصوص والتاريخ والجغرافيا وتاريخ الفنون وعلم اللغات . كل هذه المواد كانت معروفة ومدروسة في الصين بدرجة من العناية لم تكن تبلغها أوروبا قبل القرن السادس عشر

أما العلوم الطبيعية فيكفي لإثبات نبوغهم فيها أن نعلن في فخر أنهم هم الذين اخترعوا البوصلة وأحجار المناظير ورواسم « كليشهات » الطباعة المصنوعة من الخشب ، وأنهم عرفوا الورق والحرير و (البورسيلين) والطلاءات الثابتة وبرزوا في كل هذا على أوروبا قبل عصر النهضة

نعم إن أوروبا قد سبقت الصين في هذه العصور الحديثة ، ولكن ذلك ليس معناه نقص العقلية الصينية أو عدم استعدادها للنبوغ في هذه العلوم ، كلا ، وإنما هو ناشيء من أن الصينيين لم يحتكوا بأوروبا احتكاكاً مباشراً متواصلاً ، فلم ينلهم نصيب كبير من هذا النمو العلمي الحديث ، ويدل على ذلك أن الشبان الصينيين الذين أخذوا بحظ من العلوم العصرية لم يكونوا أقل نبوغاً من شباب أي شعب آخر

ثم يعلق الأستاذ زانكير على هذا بقوله : والآن نعود إلى النقاش في مشكلة الفلسفة المنهجية فنسأل أولئك المتجنين على الصينيين : ما ذا يقصدون بهذه العبارة ؟ إن كانوا يريدون بها تطبيق مناهج العلوم التجريبية على الفلسفة ، فنحن نوافقهم على أن الصينيين لم يعرفوا هذا الفن ، ولكننا نعود فنهمس في آذانهم بأن أوروبا لم تنجح في هذه الطريقة إلى الحد الذي يبرر هذه الطنطنة ، ويستدعي تلك الكبرياء . بل بالعكس إن أحدث الآراء الفلسفية المحترمة قد عدلت نهائياً عن هذه الفكرة ، وآمنت بأن العلم قد عجز أن يكون أستاذ الفلسفة وملهمها ، وأعلن استعداده إلى العودة من جديد إلى بنوتها والتتلمذ عليها ، واعترف أن مناهجه الميكانيكية ليست إلا جزءاً من مناهج الفلسفة ابتدعته هي حينما ألجأتها الحاجة إلى دراسة المظاهر الخارجية التي لا تعرف إلا عن طريق هذه المناهج التجريبية . وأخيراً فهل سقراط وأفلاطون والقديس أوجستان والقديس توماس — ولم يعرف واحد منهم المنهج التجريبي — لم يكونوا فلاسفة في نظر أولئك المتجنين [1] ؟

(١) تاريخ الفلسفة الصينية تأليف (ا . ف . زانكير) صفحة ١٦ بمة باريس سنة ١٩٣٢

(١) راجع كتاب زانكير صفحات ١٧ وما بعدها

نحسب أننا بعد هذا كله قد رسمنا لك صورة واضحة للفلسفة الصينية فى شكلها العام ، ولما أصدر عليها الباحثون من أحكام متسرعة لم تلبث أن انهارت أمام النقد العصرى النزيه

مصادرنا عن الفلسفة الصينية

يرى العلماء أن أهم مصادر فلسفة شعب من الشعوب هو الكتب التى سجلت فيها آراؤه الفكرية وأخلاقه العملية ، وأن أصدق ما يحقق هذه الغاية عند الشعوب القديمة هى الكتب الدينية ، لأن الدين والفلسفة توءمان فى النفس البشرية لا يستطيع أحدهما أن يستغنى عن الآخر ، إذ لا تكاد العقيدة الدينية تستقر فى النفس حتى توقظ التفكير الذى هو مبدأ الفلسفة ، ولا تكاد الفلسفة تبدأ فى مهمتها دون أن تفتتحها بالبحث عن الإله ، وهو الجوهر الأساسى فى العقائد . وإذن فنستطيع أن نجزم بأن الدين والفلسفة شقيقان مستقلان بدآ من مصدر واحد متجهين إلى غاية واحدة وإن اختلفت أثناء الطريق وسائلهما ، بل قد يعظم هذا الاختلاف حتى يصل إلى درجة الخصومة كما حدث بين « أنا جزاجور » ورجال الدين فى أثينا ، أو بين الفلاسفة ورجال الكنيسة فى أوروبا فى القرون الوسطى ، ولكن الصينيين لحسن حظهم لم يعرفوا هذه المعارك الدامية التى شهدتها أوروبا المتمدينة بين الفلسفة والدين مراراً عدة ، بل ظل العقل والدين عندهم فى وئام وسلام يتعاونان تعاون الشقيقين على حل خفايا الكون ومشكلات الوجود .

لهذا كله كان من الطبيعى فى الصين — أكثر منه فى أى بلد آخر — أن نبحث عن مصادر الفلسفة بين صفحات الكتب الدينية وفى تقاليد الشعب وعاداته الشفهية ، وهذا هو الذى كان بالفعل ، إذ اعتمد الباحثون المصريون فى الفلسفة الصينية على ما يأتى :

(ا) العادات والتقاليد الدينية التى ظلت — بفضل العزلة — كما كانت منذ آلاف السنين ، ولم تنل منها هذه العصور الطويلة كما نالت من تقاليد الشعوب الأخرى ، والتى لا تزال قادرة على إعطائنا صورة أمينة لما كان عليه العقل الصينى منذ تلك العهود .

(ب) الكتب الدينية الخمسة المسماة : « وو — كينج » والتى يمكن أن تعد بين أقدم الكتب الإنسانية ، ومع ذلك فلا يستطيع العالم الدقيق أن يطمئن إلى هذه الكتب كمصادر موثوق بها عن العصر الأول ، إذ قد ثبت أن أكثرها كتبه « كونفيشيوس » ملخصاً بأسلوبه الخاص ، ولهذا ينبغى للباحث الاحتياط من هذه الكتب كما يقول أحد العلماء الألمان ، ولكن ليس معنى هذا أننا نتهم « كونفيشيوس » بتشويه هذه الكتب ، كلا ، ولكنه لما صرح بأنه لم يأت فى مذهبه بجديد ، وإنما أقر أنقى وأطهر ما كان فى العقيدة القديمة ، فقد خشى الباحثون المحدثون أن يكون قد ألغى من هذه الكتب كل ما ليس نقياً فى نظره ، وهذه خسارة علمية كبرى ، لأن العالم يهمه أن يجد الآثار التاريخية بقضها وقضيضها ، ليستطيع أن يستخلص منها الحقائق فى حياد تام . وفوق ذلك فإن تلاميذ « كونفيشيوس » قد شرحوا هذه النصوص وعلقوا عليها ، وربما يكونون قد حذفوا منها أو أضافوا إليها .

يوجد بين هذه الكتب الخمسة ثلاثة جديرة بالعناية ، وهى : « شو — كينج » ، و « شى — كينج » ، و « إى — كينج » ؛ أما « إى كينج » فهو أهم هذه الكتب من حيث تصوير الناحية العقلية للأمة ، وقد حوى كثيراً من التطورات الفكرية المختلفة وهو لهذا يدعى : « كتاب التغير » وعليه أكثر من غيره يعتمد « المستصينون » فى فهم الحياة الفلسفية لهذه الأمة ، لأن التطور الذى وقع له ليس تطور حذف ولا تشويه ، وإنما هو تطور إضافة وتأويل للنصوص القديمة بما يتفق مع سير العصور المختلفة . أما نصوصه فقد أثبت العلماء أن بعضها يرجع إلى القرن الثانى عشر قبل المسيح ، وأن هذا البعض قد وجد عليه الطابع النحوى واللغوى لتلك العصور التى كتب فيها . والفضل فى هذا التحقيق العلمى يرجع إلى العالم الدقيق « أليز » الذى استطاع بمعونة علوم اللغة أن يحدد — ولو على وجه التقريب — العصور التى كتبت فيها هذه النصوص . وإذاً ، فنحن نرى أنه اجتمعت فى هذا الكتاب المحافظة الدقيقة مع التطور المستمر .

وأما « شو — كينج » فأهميته كلها تنحصر فى احتوائه على جميع النواحى الأخلاقية إذ أنه ضم بين دفتيه أسمى أنواع الفضائل والخيرات التى اتصف بها حكماء ملوك الصين فيما قبل التاريخ تلك الفضائل التى اتخذها « كونفيشيوس » فيما بعد نموذجا احتذاه وسار على منواله .

كان هذا الكتاب أكثر الكتب الصينية تعرضاً إلى التشويه والتبديل ، إذ تحدثنا القصص الشعبية أنه كان فى عهد « كونفيشيوس » مائة فصل كاملة نسخها هذا الحكيم بخطه ؛ وأنه لما أمر الأمبراطور « اتسين — شى — هوانج — تى »